ازدهار اللغة العربية رهن بتشبع الدولة بالروح الإسلامية

بقلم الدكتور عبد الرحيم بدر (الكويت)

اذا اردنا التحدث عن علاقة الاسلام باللغة العربية وجب ان نعرف مميزات اللغة العربية فيما يتعلق بقدرتها على التعبير عن الفكر بأشكاله. وكذلك مميزات الاسلام فى مدى علاقته مع لغة التعبير ، حتى يكون فى وسعنا ان نقدر اثر احدهما على الآخر، ونستعين بالملاحظة والتجربة لتأييد ما نذهب اليه . والواقع اننى اذا كتبت فى هذا الموضوع فان آرائى كلها ستكون مبنية على التجربة والملاحظة من بدئها الى منتهاها . فلست عالم لغة ولست عالم دين وانما انا كاتب علمى اكثر مما اكتب فيه هو علم الفلك ، واللغة هى وسيلتى للتعبير والدين يضع لى الحدود التى يمكن ان يصل اليها بحثى . وقد يبدو مما سأقول ان الموضوع ذاتي فى صلبه ، ولكن الكتابة عن التجارب الخاصة لا يمكن ان تكون الا ذاتية الطابع ، بيد انها موضوعية الهدف .

مميزات اللغة العربية ــ

لقد سمعت رأيا ، ووجدت بالتجربة صحة هذا الرأى ، يقول بأن **اللغة العربية هى اللغة الوحيدة التى خلقت كاملة او وجدت كاملة منذ ان عرفت .** ففيها من الفنى ما لا يعرف فى اى لغة اخرى ــ حديثة كانت ام قديمة . وقد يتبادر الى الذهن ان كثرة المترادفات هو المقصود بهذا القول . فطالما سمعنا من الاساتذة فى المدارس ان للاسد خمسمائة اسم او اكثر فى العربية . ان الكثرة من هذا القبيل لا اعتبرها مميزة . ان المترادفات تكون لها قيمتها اذا كان هناك فرق بسيط فى المعنى بين كل كلمة والكلمة التى ترادفها . كالفرق مثلا بين الكلمات المترادفة (احس) و (شعر) و (لمس) . ان لكل كلمة من هذه المترادفات الثلاثة معنى يختلف اختلافا طفيفا عن المترادفين الآخرين ، ولهذا فلكل مترادف قيمته. اما المترادفات الموضوعة لاسماء الاسد ، فقد يكون منها ما يعطى صفات معينة للاسد ، كالقوة والبطش والكبرياء والتيه والخيلاء وما الى ذلك . ولكننى لا استطيع ان اتصور للاسد خمسمائة صفة تحتاج الى خمسمائة اسم . فكثرة الاسماء المترادفة لا ارى فيها مميزة اذا كانت تحمل المعنى نفسه تماما دون اى اختلاف .

الواقع ان **اللغة العربية تتميز** بميزة هامة **عجيبة هى الاشتقاق** . فالكلمة الواحدة كانها **مادة لدنة مطواعة تضغط وتمط وتلوى** بحيث تعطى فى النهاية المعنى المطلوب منها فى منتهى الدقة . فمن الفعل الماضى « فعل » يمكن ان نجد كلمات لا يستطيع حصرها امثالى من غير المتخصصين فى اللغة ــ مثل فعل وتفاعل وتفعل وانفعل وفاعل

وافعل ، ومن الصفات المشبهة والمبالغة نجد فعـــول وفعال وفاعل ومفعول وفعيل وفعالة ومفعل وما الى ذلك . المهم فى هذه الكلمات ان كل واحدة تختلـــف عن الاخرى اختلافا بسيطـا بحيث تـؤدى المعنـى الدقيق المطلوب منها فى الادب او العلم ، والـــذى تتطلبه مقتضيات الحضارات المتطورة دائما وابدا .

ولاضرب مثلا واقعيا من تجربتى الخاصة .

ان العلم الحديث بعد ان ازدادت المادة التـى يمكن ان يكتب فيها ، اصبح يستـدعى اختصـــار الاسماء الطويلة ، وليس اثقل على السمع من ذكـر اسم آلة من الآلات اذا كان يتركب هـذا الاسم مـن كلمتين او اكثر ، خاصة اذا كان ذلك الاسم يتكرر ذكره كثيرا فى البحث الواحد . وهناك آلة يستعملها الفلكيون تحلل الطيف ، واسمها فى الانجليزية (وفى كل اللغات الغربية فى الحقيقـة) Spectroscope وهى مكونة من مقطعين اولهما لاتينى ومعناه الطيف وثانيهما يونانى ومعناه منظار . وكنت اترجمها فيما اكتب من بحوث «بالمحلل الطيـفى » . وقـد كنت اشعر بثقل هذه الكلمة اذا كان البحث يستـــدعى تكرارها . وقد اطلعنى الدكتور فؤاد صروف عـــلى كلمة واحدة وضعها بالاشتقاق اسما لهذه الآلة وهى « المطياف » . وقد اعجبنى الاسم ووافقت شخصيا على استعماله فى كتاب بدائع السماء الذى ترجمته وقام الدكتور صروف بمراجعته . وقد ادخلته فى القاموس الفلكى الذى وضعته فى نهاية الكتاب .

وهناك مثلان آخران من كتاب بدائـع السمـاء ايضا ، وهما بالصدفة من كلمة واحـدة من اللغـة العربيـــة .

نعرف ان العرب الذين بلغوا بحساب المثلثـات درجة الكمال ، سموا زاوية النظر عند تقدير الابعاد فى مثلث (زاوية الاختلاف) . وهـذه الزاويـة هى المعروفة الآن فى اللغات الغربية باسم Parallax وهى اسم يتردد كثيرا فى بحـوث خاصة من عـلم الفلك . ولما كانت مكونة من كلمتين فان استعمالهـا ثقيل ، كمـا قلنـا . وفى اثنـاء البحث عن معنـاها فى القواميس وجدت فى قاموس النهضة لاسماعيل مظهر كلمتين اعجبت بهما ، لان كل كلمـة منهمـا تعطى المعنى الذى تدل عليه هـذه الزاويـة ، وهما « التزيح » او « التزييح » .

وقد فضلت اختيار الكلمة الاولى ، ووضعتهـا فى كتاب بدائع السماء وفى القاموس الملحـق به ، وقد وافق عليها الدكتور صـروف وفضلـها على اختلاف الزاوية المكون من مقطعين .

وفى اثناء الترجمة كنت اجد صعوبة فى ترجمة كلمة Displacement ، وهى تعنـى تغيـر موضع الشىء ، واستعمالها غير قليل فى الفلـك . ومـن السهل التعبير عنها بجملة اذا كان ذكرها لا يتكرر الا مرة واحدة. ولكنها اذا كانت تتردد كثيرا فيجب ان توجد لها كلمة واحدة تعطي معناها . وقد وضعت لها كلمة (انزياح) فى متن الكتاب وفى القـاموس ، وقد وافق عليها الدكتور صروف ، وقال انها موفقة.

ان كلمة التزيح ، وكلمة الانزياح ، تـدلان على اصطلاحين مختلفين فى الفلك ، لا علاقة للواحـــد بالآخر وكل كلمة منهما تعطى المعنى الدقيق للشىء الذى تدل عليه ، والكلمتان مشتقتان من اصل واحد هو زيح .

نرى من هذا اننا امام فيض من الكلمات يمكن ان نختارها من خلال عملية الاشتقاق ـ هذه الظاهرة الغريبة العجيبة التى تتميز بها اللغة العربية . واننى اتصور اننا اذا امسكنا بالمصطلحات العلمية الحديثة كلها فلن نجد كلمة واحدة يمكـن ان تستعـصي على اللغة العربية دون ان تجد لها مقابلا دقيقا جدا يعطى المعنى المقصود تماما . وارجو من القارىء ان لا يفهم من هذا اننى امهد الى فكرة ترجمة جميع المصطلحات العلمية الحديثة الى اللغة العربية بكلمات عربيـــة صرف مستغنيا عن جميع الكلمات التى دخلت الى العربية باللفظ الاجنبي ، فتفصيل هذا سأتكلم عنه فى حينه ، ان شاء الله .

انما الذى اهدف اليه هو اننا نمتلك كنزا فيه من الخيرات ما لا يتوفر لغيرنا من الامم . والواقع أن اللغات فى الامم المتحضرة فى العصر الحديث لم تستطع بذاتها ان تجاري الحـضارة ومتطلباتها فلـجأ بعضها الى بعض واعتمدت على الاغريقية واللاتينيـة وخرجت لنا بمصطلحات امكنها ان تجاري عصرها ، اما بطبيعتها فهى عاجزة حتما . اعرف هذه الحقيقة على الاقل فى الانجليزية والفرنسيـة . اما اللغـــة الروسية فمعلوماتى عنها معدومة عمليا ، الا ان اسماء بعض الاقمار الاصطناعية مثل لونا وكوزموس يدل على انها تعتمد ايضا على اليونانية واللاتينية .

وخلاصة القول ان لغات الحضارة الحديثة ولدت ونمت نموا طبيعيا ، ولما كانت ولادتها غير كاملة فقد اعتمدت في نموها على اللغات المجاورة وعلى اليونانية القديمة واللاتينية ، وتفاعلت الى ان وصلت الحد الذى استطاعت فيه ان تجاري المدنية التي قامت فيها . وقد تميزت هذه اللغات على الغالب بميزة غير متوفرة في اللغة العربية ، وهي ان كلماتها تتكون من مقاطع يحمل المقطع معنى خاصا به ، فأخذت تستعير المقاطع من بعضها وتكون الكلمات التي هي بحاجة اليها . ولا اعتقد ان لغة من هذه اللغات ، المتشابكة في منشئها ، لها من ذاتيتها ومن طبيعتها المقدرة على مجاراة حضارة من الحضارات.

قد تكون للغة العربية مميزات اخرى ، ولكن الشيء الذى يهمنى فى الواقع من حيث مجاراة العلوم والآداب والفكر المتطور هو الاشتقاق والمقدرة على التعبير .

مميزات الاسلام ـ

وقد تكون مميزات الاسلام اكثر من ان احصيها، الا انني في حديثي هذا لن اتطرق الا الى مميزة هامة رئيسية ، قد تكون هي الاساس الذى تقوم عليه المميزات الاخرى ـ الا وهى ان **الدين الاسلامى دين العقل.** فهو لا يندفع الى المادية المتطرفة ولا الى الروحانية المتطرفة ، وانما يجعل العقل هو الحكم فى جميع الامور . وهو يضع تعاليمه بناء على العقل ، ويخاطب دائما اولى الالباب والذين يعقلون والذين يتفكرون . وهو يحترم العلماء الذين يخافون الله بناء على علمهم الذى يرشدهم اليه . واذا **كان العقل هو الاساس الذى تقوم عليه حضارة امة من الامم ، فمن المنتظر ان تنتشر هذه الحضارة وتمتد وتعمر طويلا** ، وهذا فى الواقع هو الذى كان .

فقد استمرت الحضارة الاسلامية عصورا طويلة من الزمن الى ان جاءت الشعوبية فنخرت فى عقلانية الحضارة وحولتها الى اى شيء آخر ما عدا العقلانية ، وجاءت عصور الظلام .

والواقع ان عصور الظلام هذه لا تعنى رجوع الناس عن الدين الاسلامى ، بل قد يكون الامر بالعكس ـ ففى هذه العصور امتد نطاق النفوذ العثمانى الى اوربا الشرقية والوسطى ، ونستطيع ان نقول ان المسلمين قد ازدادوا عددا . ولكن الكيفية التى اصبح الاسلام فيها كانت قد تغيرت . اجل ، اخذ الاسلام ينتشر ويمتد فى هذه العصور ، انما كان انتشاره وامتداده على اساس آخر ـ مجرد عبادات ووحدانية وقوانين عادلة وهذه بحد ذاتها دافع كبير لاعتناق هذا الدين والتمسك به ، وهى هدى من الله سبحانه وتعالى توحى لمعتنق الدين بالراحة النفسانية ـ ولكنها تفتقر الى **الدافع العقلانى** الذى اصبح مفقودا فى هذه الآونة . وفقدان الدافع العقلانى فى الدين ، ومجيء حاكم ظالم لا يعرف من الدين الا التقاليد التى جعلته خليفة للمسلمين هو الذى حول الطابع الحضارى للاسلام ، وجعل الحضارة الاسلامية العربية تقبع مدة طويلة من الزمن وينعدم فى الواقع تقدمها هذا اذا لم تكن قد فقدت كثيرا فى هذه الآونة من تراثها السابق .

وايضاحا لهذه النقطة اقول ، ان الدين الاسلامى ليس مجرد عبادات صادرة عن عقيدة يؤمن بها الانسان وحده فحسب بل انها بالاضافة الى ذلك **روح مجتمع** يشمل الجماعات بالاضافة الى الافراد ولما كانت السيطرة في القرون الاربعة السالفة في العالم العربى لخليفة لا يرتبط بالعروبة ويخشى على عرشه من الفكر الاسلامى الصحيح الذى يؤمن بالعقل ويدعو الى التفكير ، لهذا كان الضغط على هذه الظاهرة الحضارية .

واذا جاز لنا ان نقسم فى سبيل البحث المظاهر الاسلامية ، نستطيع ان نقول ان هناك ظاهرتين ـ ظاهرة اسلام الفرد **وظاهرة اسلام الدولة او المجتمع.** وللظاهرة الاخيرة **الاثر الاكبر فى ازدهار اللغة العربية وانتشارها وقيامها بالدور المطلوب منها فى تادية واجبها الحضارى .**

فعلاوة عن ازدهارها فى العصر الاموى والعصر العباسي الاول ، نجد انها استمرت فى التقدم فى العصور العباسية المتاخرة ، على الرغم من اضمحلال السلطة الزمنية للخليفة العباسى . وكان فى الفترات العباسية المتاخرة دويلات عديدة متفرقة فى انحاء الامبراطورية الاسلامية يحكمها امراء مختلفون ، وبعضهم قد لا يكون عربيا . ولكننا فى هذه الفترة نرى ازدهار اللغة العربية فى نواحى الفكر المختلفة من ادب وفلسفة وعلوم . وقد ظهر كثير من جهابذة الفكر فى هذا الوقت ، وكثير منهم لم يكن عربي الاصل ، وانما كان يكتب ويفكر باللغة العربية كالبيرونى وابن سينا . ويمكن للباحثين فى تواريخ رجال الفكر ان يجدوا الكثير من هؤلاء الذين لم يكونوا عربا فى اصلهم وانما كانوا مسلمين مؤمنين يعيشون فى امارة تحمل الروح العربية فى سلطتها

الزمنية ، ووجدوا من الطبيعى ان يتكلموا ويفكروا ويكتبوا باللغة التى حدثهم بها دينهم والتى نما بها تفكيرهم . وهذه الكتابات العربية التى قام بها هؤلاء المفكرون وكتبوها بلغة القرآن لا يمكن ان نكتفى بوصفها بأنها حضارة اسلامية فحسب بل انها حضارة عربية ايضا . من الصعب جدا ان نفرق بين العروبة والدين فى هذه الفترة من الزمن . ان الروح المتوثبة المنطلقة التى جاء بها الدين الاسلامى لم يكن يستطيع ان يتكلم عنها غير لغة الدين نفسه ، هذه اللغة التى تملك مميزة الاشتقاق . وبالطبع لا يمكن ان تخلو هذه الفترة من شعوبيين من الكتاب حاولوا جهدهم ان يجعلوا سبب هذا الانطلاق هو الدين الاسلامى وحده ، وان ينزعوا فضل اللغة العربية او العروبة كلها من الموضوع .

ارى ان البحث الذى اطرق اوسع من ان اوفيه حقه فى استفتاء قصير كهذا فهو فى الواقع ليس الموضوع الذى تخصصت فى الكتابة فيه وقد تكون السطحية فى بحث كهذا اكثر ضررا من اغفال البحث كله .

خلاصة ما اقصد اليه فى هذا الحديث هو ان **روح الدين الاسلامى اذا وجدت فى السلطة الحاكمة فانها ستدفع باللغة العربية الى الامام** ، وهذا ما يفسر لنا تقهقر اللغة والفكر الاسلامى كله فى فترة الحكم العثمانى .

دلائل تقدم اللغة فى عصور ازدهارها ـ

سوف لا اتطرق الى تقدم اللغة فى الادب والشعر والدين تاركا للمتضلعين فى هذا الشأن ايفاء الحديث حقه . ولكننى سوف اتناول ذلك بقدر ما يتيسر لى ، فأفترض ان اللغة المتقدمة فى العلم هى التى تستطيع الايضاح عن المفاهيم العلمية سواء بالاسلوب او المصطلحات . ولا اظننى بحاجة الى ذكر البيان والبديع والاساليب البلاغية المتوفرة فى اللغة العربية . انما اقول ان العلوم بدات فى مطلع الدولة العباسية تترجم ، ثم اخذ يظهر من العلماء من يهضمون محتوياتها ، وسرعان ما ظهر الكندي الذى بدا يضع الاصول لعلم البصريات وعلم الاجواء ومختلف العلوم الطبيعية ، وبدانا نجد العلم العربى الاصيل النابع من علماء فهموا محتويات التراجم اليونانية وهضموها هضما جيدا واخذوا يزيدون عليها. وبطبيعة الحال بدات المصطلحات العلمية تظهر شيئا فشيئا ، ومع مرور الزمن ظهر فطاحل العلم فى القرون الوسطى كابن سينا والبيرونى والرازى وابن الهيثم ونصر الدين الطوسى وعبد الرحمن الصوفى. ونلاحظ فى خلال مراجعتنا لبعض هذه الكتب او كلها الملاحظات التالية :

1 ـ المصطلحات العلمية ـ غير اسماء الاعلام اصبحت كلها عربية خالصة ، ويلاحظ القارىء بساطة هذه المصطلحات الجديدة الخالية من التعقيد . فلا يشك احد مثلا ، بأن عبد الرحمن الصوفى عندما وضع كتابه صور الكواكب ، كان يعرف الزوايا ويقيس ابعاد النجوم عن بعضها بهذه الوسيلة بواسطة الاسطرلاب والسدس . ولكنه يذكر فى متن الكتاب اصطلاحات لا علاقة لها بالزوايا ، كالرمح والذراع والشبر والاصبع . فيقول ان النجم الفلانى يبعد عن النجم الفلانى بمقدار ذراع مثلا . او بمقدار رمح او شبر او اصبع . ويخال القارىء للكتاب ان هذه الاصطلاحات هى مسائل تقديرية من الصوفى . والواقع غير ذلك ـ فالرمح فى قياساته تساوى ما يعرف الآن بمسافة 14 درجة (كالمسافة التى تفصل بين نجم « بيت الجوزاء » Betelguese ونجم «رجل» Rigel فى مجموعة الجبار الذى يعرف ايضا بالصياد) ، والذراع هو سدس الرمح ويساوى درجتين وعشرين ثانية ، والشبر هو ثلث ذراع اما الاصبع فهو جزء من اثنين وثلاثين جزءا من الذراع .

وهذه التعابير البسيطة اذا اصبحت تدل على قياسات دقيقة دخلت نطاق العلم كمصطلحات علمية. ولا نجد ان العرب قد لجأوا الى تعابير اجنبية فى اصطلاحاتهم العلمية ، اذ كان فى لغتهم متسع لكل ما يطلبون .

2 ـ نجد كثيرا من الاصطلاحات مكونا من كلمتين ، مثل (اختلاف الزاوية) و (خط الزوال) . وقد تكون لهم حجتهم فى هذا الاختيار . فالكتب قليلة ان لم تكن نادرة ، والوقت طويل لقراءة الكتاب والتمعن فيه ، على عكس هذا الزمن الذى لا يجد الانسان الوقت فيه لكي يراجع مئات الكتب فى اي موضوع يشاء .

3 ـ نظرا لثقة العلماء فى انفسهم كانوا يبقون الاسماء التى تدل على اعلام على ما هى عليه مع بعض التعريب . فكتاب بطليموس حافظوا على اسمه تقريبا ـ المجسطى وكذلك اسماء المجموعات النجمية التى تدل على اعلام ـ مثل قيفاوس Cepheus

الذى يسميه الصوفى والبيرونى قيقاوس ، ولا ادرى كيف وقعا فى هذا الخطأ مع انه اسم ملك فى الاساطير اليونانية ، ولكنى ارجح ان اعجام الحروف بالتنقيط فى تلك الايام كان فيه مجال كبير للخطأ . ومثل برشاوش Perseus وقنطورس Centauris حتى ان بعض المجموعات التى تحمل اسماء عربية لم ينسوا ان يضعوا بجانبها اسمها الاجنبى. فالشلياق او السلحفاة لم ينس البيرونى ان يضع بجانبها اسمها الاجنبى اللورا Lyra وفى كتاب صور الكواكب للصوفى طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر اباد الدكن يذكر اللوزا (باعجام الراء) ولا ادرى اذا كان ذلك نتيجة خطأ مطبعى ام ان الصوفى يقصد ذلك ، للسبب نفسه الذى تقدم ذكره عند الخطأ فى اسم قيقاوس .

اعتقد ان ثقتهم بعلمهم وتمكنم منه هو الذى جعلهم ينصفون غيرهم من العلماء الذين سبقوهم ، وهم لا يرون عارا فى استعمال كلمات اجنبية اذا كانت لها قيمتها فى اسطورة من الاساطير وفى اسم شهير .

ونتيجة لذلك كله ، وضع العرب طابعهم على العلم كله، ووصل الينا من ذلك على الاقل اسماء النجوم التى بقيت عربية حتى الآن . واني اقول انهم لن يصلوا الى هذه الدرجة الا بروح الاسلام التى كانت طاغية فى العصور التى ازدهر فيها العلم . وتقرير حقيقة كهذه دون اثباتات وبراهين تفصيلية قد لا يكون لها وقعها المطلوب فى النفوس التى تبحث الحقائق بحثا موضوعيا . ولكنى كما قلت فيما سبق اكتب مجرد ملاحظات رايتها فى تجربتى الخاصة ، اما التفصيل فاتركه للمؤرخين والبحاثين فى التاريخ .

عصور الانحطاط ـ

وفى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى احتل العثمانيون القسطنطينية ، واخذوا يتوسعون فى امبراطوريتهم شيئا فشيئا وسيطروا على كل العالم العربى وغير العالم العربى ، ورأوا انهم ماداموا يدينون بالاسلام فيجب ان تكون لهم الخلافة ، وامكنهم تحقيق ما ذهبوا اليه . ولكنهم كانوا يتكلمون اللغة التركية العاجزة عن ايفاء الحضارة حقها ، ولم يستطع ايمانهم بالدين الاسلامى ان يجعلهم يتخذون من اللغة العربية لسانا . واصبحت لغتهم فى الواقع خليطا عجيبا من العربية المتركة واللغة التركية . واصبح الحفاظ على هذا النظام هو الاساس الذى تقوم عليه الدولة ، وفى اواخر عهدهم اصبحوا يدرسون اللغة العربية التى لا غنى لهم عنها باللغة التركية . هذا الازدواج فى شخصية الدولة بين الدين الصحيح والجنسية الحاكمة لم يؤثر فى مدى انتشار الدين الاسلامى على اساس العقيدة الفردية ولكنه اثر على الفكر تاثيرا كبيرا . وغدت روح الدولة اسلاما كهنوتيا اذا صح لنا هذا التعبير .

وكل ما استطيع ان اقدمه من اثبات على صحة كلامى هذا **هو انعدام العلماء** العرب ، او على الاقل انعدام اولئك الذين كان يمكن ان يحدثوا اثرا فى الفكر . وبالاضافة الى ذلك اصبحنا **نجد عجزا فى اللغة المستعملة** ، ونحن حتى الآن لم نفق الافاقة الكاملة من ذلك الكابوس المزعج الذى استمر حتى اوائل القرن العشرين . فقد مرت هذه القرون الاربعة من الزمن ، والحضارة تغذ السير ، والآلات المختلفة تظهر الى الوجود ، ولغتنا الغنية فيما سبق تفتقر الى كلمة « طاولة » . هذه اللغة التى يوجد فيها للاسد اكثر من خمسمائة اسم لم يعد فيها اسم واحد يدل على متاع موجود فى كل بيت تقريبا ، وهو ما يسمى بالعامية طاولة . هناك كلمات فى اللغة العربية مثل منضدة ومائدة ، ولكنى اظن هاتين الكلمتين لا تكفيان لانواع الطاولات الموجودة فى البيوت . وفى رايى ان هذا المتاع اذا كنا سوف ننضد عليه اشياء فيجب ان يكون اسمه المنضدة ، ويحق لنا ان نسميه مائدة اذا كنا قد خصصناه للاكل، وهنا خلاف جديد يظهر لنا . فمن الناس من يأكلون على مائدة لا ترتفع اكثر من شبر او شبرين عن الارض اكثر من ذراع . فأى هذه الاوضاع الثلاثة جدير باسم المائدة ؟ وبعد ذلك كله ، فهناك طاولات متعددة الانواع مختلفة الاستعمال ، فمنها ما يوضع فى الوسط فى غرفة الاستقبال ويوضع عليه الزهور، ويكون ارتفاعه اكثر من ذراع ، ومنها ما يؤدى الغرض نفسه ويكون ارتفاعه حوالي شبرين فقط ، ومنها ما يكون صغيرا جدا توضع عليه علب التبغ ومنفضة السجاير ، ومنها ما يكون طويلا جدا صغير المساحة يوضع فى زاوية الغرفة لكي يوضع عليه اص فيه شجرة صغيرة ، ومنها ما يخصص للكتابة ، وقد يكون فى هذا النوع درج او لا يكون . ويستطيع المتوسع ان يجد اصنافا عديدة جدا اكثر مما ذكرت. ليس لهذه الاغراض فى اللغة العربية الحديثة اسماء . حتى «طاولة» فهى ليست كلمة عربية .

والاغرب من ذلك كله ، ان كلمة « طاولة » كما يبدو مأخوذة عن الاجنبية Table وهذه بدورها مأخوذة عن اللغة العربية طبلية . وفى قاموس المنجد الطبعة الثامنة ــ (الطبلية) دراهم الخراج، ج طبليات. والعامة تستعملها لمنضدة مستديرة مثل الطبل يرق عليها الخبز او يؤكل عليها او نحو ذلك . وبناء على هذا تكون بضاعتنا قد ردت الينا بشكل لم نعد نتعرف عليه ولم يعد يتعرف علينا .

وقد استمر الانحطاط طوال هذه الفترة التى اسميها **بالعصور المظلمة . ولولا القرآن الكريم والدين الذى كان يدرس باصوله فى المعاهد الدينية كالازهر الشريف بالذات ، لعلم الله ما كان فى الامكان ان يحدث للغة العربية** . اننى ارجح ان يكون مصيرها الى الزوال والى الحفظ فى بطون الكتب الاثرية ، لاسيما وقد سبق لغيرها من اللغات التى كانت لسان حضارات عظيمة ان آلت الى هذا المصير ــ والاغريقية القديمة واللاتينية مثلان على ذلك .

وقد بدا الشعب العربي يتململ منذ القرن الماضى ، وما انتهى الكابوس التركى حتى بدات النهضة الحديثة التى لا تزال حتى الآن فى بدايتها. ولكنها بداية غريبة حقا . انها بداية تعتمد على اسس عديدة يحتار لها الفكر ويضيع فيها . فمن الناس من يرى ان نعتمد على لغتنا وديننا ونستأنف السير فى الحضارة على هذا الاساس ، ومنهم من يرى ان اللغات الغربية التى اصبحت تفوق العربية حاليا فى غناها ، هي التى يجب ان تكون على الاقل لغة الدراسة العلمية ، ومنهم من يرى الانصراف الى الآداب الغربية وتعريبها ولا يهم شكل اللغة التى سيتم فيها هذا التعريب ، بل وصلنا الى امور هى فى منتهى الغرابة ــ فهناك دعوات الى ترك اللغة العربية الفصحى كلها واستعمال اللغة العامية ، ولما كان فى الشعوب العربية حوالي خمسين او ستين لغة عامية تختلف الواحدة عن الاخرى كان من المفهوم الضمنى الدعوة الى تقسيم العرب الى هذا العدد او اكثر من الفئات وتختص كل فئة بلغتها العامية ويصبح لها ادبها الخاص وتستغنى عن كل التراث العربى القديم الذى لم تعد له اهمية فى نظر هذه الفئات . وهناك دعوات اخرى منها كتابة العربية بالحروف اللاتينية وهذه لا استطيع ان ابدي فيها رايا لان قراءاتى عنها لم تكن مستوفاة .

على اية حال ، فقد بدات العربية تنشط كلفة معبرة عن المواضيع التى تطرقها، ولكن الاسس المهلهلة والدوامة الحضارية التى رمانا فيها المستعمرون دعت الى ظهور اخطاء كثيرة لا اود ان اذكر منها غير امرين يلفتان الانتباه ، فلست فى مجال تعداد الاخطاء ــ :

1 ــ اصبح كثير من المثقفين يؤمنون بالحضارة الغربية ايمانا يستصغرون به ما انتجته الحضارة العربية ولا يكادون يصدقون ان العرب كانت لهم كشوفهم وان آثارهم لا تزال واضحة فى العلم الحديث ، والفلك بالذات . ولهذا كانت تمر فى بعض الكتب القيمة اغلاط مستغربة . ففى كتاب « كيف ترقب السماء » ، تأليف برانلى ، وترجمة الدكتور محمد جمال الدين الفندى ، نشر مؤسسة فرانكلين ــ نجد ان نجم « مراق » يصبح اسمه « مراك » ، ونجم الدبة يصبح اسمه « دبهى » فهو يكتب بالانجليزية Dubhe ونجد ان نجم المئزر والذى يسمى ايضا بالعناق يصبح اسمه ميزار ، فهو يكتب بالانجليزية Mizar والواقع ان اسماء النجوم كما يقول اطلس نورتون Norton's Star Atlas فى الطبعة الرابعة عشرة سنة 1959 ، صفحة 52 « وكثير من اسماء النجوم والعناقيد ليس لها لفظ ثابت ، فهى محرفة او مشوهة عن اللغة العربية . فنجم ارنب يلفظ ارنب وارنب (بفتح النون او كسرها ونجم كف قد يلفظ كف وتشف ... الخ »

على اية حال ، فاذا كان هناك خلاف فى اللفظ فى كثير من اسماء النجوم ، فمما لا شك فيه ان الحروف تدل دلالة كبيرة على الاسم على الاقل لانه يكتب فى اللغة العربية دون شكل ، ومن السهل اخذ الحروف الصامتة من الكلمة الانجليزية وترك حروف العلة التى تقابل الحركات . وكلمات مثل دبة ومئزر ومراق لاتحتاج الى كثير من الجهد لكي يظهر اصلها العربى .

ولكن هناك كلمات كثيرة اخرى كاد التشويه يفقدها اصلها العربى ، ويلقى عبء معرفة اصولها على ما يقوم به البحاثون المتضلعون المختصون ، ويجب ان اذكر بهذه المناسبة ابحاث الدكتور عدنان الخطيب التى اطلعت على قسم منها شخصيا ، وهى بلا شك تدل على مجهود كبير . وبالمثل يجب ان اشير الى المساعدات التى يحاول ان يرسلها لى الدكتور محمد هيثم الخياط ــ وكلاهما من دمشق . (الدكتور الخطيب عضو المجمع العلمى والدكتور الخياط استاذ فى كلية الطب) .

2 ـ الخطأ الثانى الذى اود ان اشير اليه هو اندفاع بعض من يكتبون الى اهمال اللغة العربية كوسيلة للتعبير اهمالا بشكل يبعث الحيرة والاستغراب . ومن المعروف ان اللغة العربية على الاقل ان لم تزد فى قدرتها على التعبير على اية لغة اخرى فانها لا تقل عنها . ولا اتكلم خاصة عن الصرف والنحو واستعمال العربية العامية او الفصحى ، وانما اعنى المقدرة على التعبير بأى شكل من الاشكال . وسوف لا اضرب مثلا من الادب السوقى الرخيص ، بل من الادب العالمى المترجم الى العربية . واعنى بذلك كتاب « النفوس الميتة» للكاتب الروسى نيكولاى جوجول، وقد يكون هذا الكتاب اشهر نص ادبى كلاسيكى روسى .

لقد نشرت دار اليقظة العربية السورية هذا الكتاب فى سلسلة عيون الادب العالمى وطبعته طباعة جيدة وقام بترجمته انطون حمصى ويوسف بنا . ومن المفروض اننا نقرأ نصا ادبيا قد لا يحسن الكاتب روعة الاداء ولكنه على الاقل يعطينا معنى من المعانى، ولكننا فى الترجمة المذكورة فى الصفحة 12 عندما نقرأ التعليق على وصف السائق سليفان نجد ما يلى:

« ولكن الرجل الروسى .. يفخر بأنه يحافظ على علاقاته الاجتماعية بهز قبعة بسيطة لكونت اوبرانس ، ولذلك فان الكاتب ليس بمطمئن لاجل بطلنا بنصيحة مدرسية ساذجة ، وقد يمكن لمثل نصائح البلاط ان تتنازل للمعرفة ولكن هؤلاء الذين وصلوا الى مرتبته العامة بقوة الدسائس ، ليس من نصيبهم بالطبع الا نظرة احتقار من القارىء او ما هو اردأ من ذلك ، اعنى السير قريبا منه ، دون اى اختلاف عن مشية القاتل ، اجل كل هذا محزن جدا ولكن فلندعه ولنعد الى تشيتشيكوف فيقول (ص15) :

« وان الكاتب ليعلم بأن هذا ليس من السهولة بمكان ، بل انه لاسهل علينا ان نرمى بالوان عديدة على قطعة من نسيج قشر القنب بكل سخاء . كانت عيناه السوداوتان (كذا) تشعان باللهب ... الخ» ويستمر المترجمان فى الحديث بجملة اخرى يقولان فيها انه « اشقر الشعر بعينين زرقاوتين (كذا) »

قد لا يستحق هذا الكلام كل هذا التعليق ، ولكن الكتاب يعتبر نصا ادبيا وهو موجود فى مكاتب كثيرة كمرجع عن الادب الروسى الكلاسيكى ، وقد طبع الكتاب لكي يكون كذلك . ولو شئت ان ارمي بالوان عديدة على قطعة من قشر القنب بكل بخل لادركت ان اللغة العربية اصبحت اعجز من ان تؤدى عملا . فأمر ترجمة كهذه لايمكن ان يعتبر جهلا فى الترجمة ، لان من جهل الترجمة يعطى المعنى الخاطىء الذى فهمه ، ولكن القضية كلها **استهتار باللغة العربية وبالقراء العرب** . انها صرخة تقول « اذا اردتم ايها العرب ان تفهموا عبقرية جوجول ، ولا احد يشك على ما اعتقد بعبقريته ، فعليكم ان تقراوه فى لغة اخرى غير العربية .»

على اية حال ، فان **الاسفاف** الذى نجده غزيرا فيما ينشر فى الاسواق الآن **ليس دليلا على عجز اللغة العربية** ، واذا تتبعنا طبيعة الناشر او هدف الكاتب من انتاجه نجده فى الغالب بعيدا كل البعد عن الروح العربية وعن الطابع الاجتماعى الذى قامت بنشره الحضارة الاسلامية بظهور الدين الاسلامى .

بداية النهضة الحديثة فى لبنان :

يجب ان لا نستغرب بداية النهضة الادبية والعلمية الحديثة فى لبنان البلد العربى الذى تكثر فيه المسيحية ، وان تكون الريادة فى هذا الميدان لاخواننا المسيحيين بالذات . فقد كان لبنان بوضعه الاجتماعى والدينى اكثر البلدان العربية اتصالا بالغرب . وبناء على ذلك فقد اتيحت لهم الفرصة لكسب المذهب العقلانى الذى اخذت الحضارة الغربية تسير عليه ، ورأوا من واجبهم ان يبحثوا لغتهم ويكتبوا بها الادب والعلم ، بناء على الاساس الجديد. وقد ظهر من الآباء اليسوعيين ومن غير الآباء اليسوعيين من لبنان ممن قدموا للغة العرب والادب ما لا يجب ان يغمط حقه . واذا كان لى ان اشيد بشيء فان الناحية العلمية التى هي من اختصاص بحوثى هى التى يجب ان اذكرها . واخص هنا بفضل آل صروف ومجلة المقتطف . فقد قاموا بمجهود جبار فى نقل العلوم الحديثة الى اللغة العربية بقالب عربى ووضعوا اصطلاحات عربية جديدة وحاولوا احياء كثير من العلوم العربية والاصطلاحات العربية .

ولكن الذى يؤسف له حقا ان مجهودهم كان مجهودا فرديا ، اذ ما انقطعت مجلة المقتطف عن الصدور حتى وجدنا ان الحركة كلها قد وقفت فى هذا الاتجاه ، وبدأت فى الواقع حركة النهضة فى اتجاه آخر، هو الاتجاه الغربى المحض . فقد ازدهرت دراسة العلوم لكن بطابعها الغربى وفى الجامعات التى تدرس باللغات الغربية ، حتى ان معظم الدراسات العلمية كانت تهدف فى الواقع الى الكسب

المهني الحرفي الذى يستفيد منه المرء شخصيا ، وتنتهى الدراسة فى العادة بالوصول الى هذا الغرض. اما البحوث العلمية التى تهدف الى زيادة المعرفة او الى خدمة المجتمع ككل فلم تكن نجد لها اثرا ظاهرا ، لان التخطيط للمجتمع والموارد الرئيسية للبلد لم يكن من هم الحكومات التى كانت معظمها تحت السيطرة الاستعمارية .

على اية حال ؛ حتى بعد استقلال الدول العربية **لم تجر محاولات جدية لجعل اللغة العربية لغة العلم الا فى جامعة دمشق** . اذ اصبح الطابع الغربى هو الغالب على حضارتنا .

الضياع الجديد

لا نزال بعد نهضتنا التى مر عليها اكثر من نصف قرن لا نعرف فى الواقع اين نحن . فديننا الاسلامى يشدنا الى الروحانية والعقلانية والانسانية من ناحية ، ولكن الحضارة التى قدر لنا ان نجدها امام اعيننا هى حضارة غربية بطابعها المادى العنيف. انها عقلانية ولا شك من حيث انها تستعمل العلم والذكاء والتجربة بكل عبقرية وفن . ولكن هدفها هو المادة وهو يهزأ بالانسانية والشعور الانساني . وبين الدين والحضارة التى نعيشها نجد انفسنا ضائعين . فهل نستعمل اللغة العربية فى علمنا ؟ وهل نترك اللغات الاجنبية التى اصبحت مفاهيمنا جزءا منها ؟ وكيف يمكن ان نبدأ من جديد ؟ وما الفائدة من الرجوع الى العلماء العرب ما دامت الحقائق التى ذكروها اصبحت قديمة؟ وكيف لنا ان نضع مصطلحات جديدةلآلاف المصطلحات التى اصبحنا نعرفها بسهولة فى اصولها الاجنبية ؟ بل اننا وصلنا الى درجة اصبح الكثير منا يجد ان اللغة العربية اعجز من ان تفي بهذه المتطلبات .

ولكن اللغة العربية فى الكليات الادبية وفى المعاهد الدينية تزدهر وتنمو، والقرآن حافظ امين لها . انها لا تعجز الآن عن اداء المعانى والمصطلحات فى جميع الفروع الثقافية ــ ما عدا العلوم . فالى متى سوف يستمر هذا التناقض بين دراساتنا العلمية والادبية ؟ وهل سنبقى بلغتين او باكثر ، العربية للآداب والشؤون الثقافية الاخرى ، والانجليزية او الفرنسية لشؤون العلم ؟

مجهودات مشكورة ــ

الواقع ان جعل اللغة العربية لغة العلم لا يمكن ان يحدث الا اذا اصبحت لغة التدريس فى الجامعات . واظن ان الجامعة السورية يجب ان تحوز على قسط وافر من الثناء بهذا الخصوص. فالاساتذة الذين يدرسون فيها يبحثون وينقبون عن اصول الكلمات العربية ويستعينون بالمجامع العلمية فى هذه المهمة ويخرجون لنا بنتاج هو ذخر فى الواقع . وكثرة الكتب التى تظهر فى هذا الميدان هي التي سوف تقرر رسوخ هذه الكلمات والمصطلحات . والواقع ان الاصطلاح او التعبير اذا وضع مجردا لم تكن له قيمته الى ان يستعمل . وكثرة الكتب العلمية التى تنشر هي التي ستكون حافزا لواضعيها لكي يجدوا التعابير والمصطلحات المناسبة لما يكتبون .

واذا اخذنا العلم مجردا من الحضارة الغربية واصبحنا ندرسه فى جامعاتنا باللغة العربية وزاد تمسكنا بالروح الاجتماعية الاسلامية العقلانية الانسانية فاننا باذن الله واجدون لغة غنية فياضة تغنينا عن كل لغة اخرى .

مصادر البحث :

1 ــ المنجد ــ الطبعة الثامنة ــ للاب لويس معلوف اليسوعى .

2 ــ القاموس المحيط ــ لمجد الدين الفيروزابادى

3 ــ قاموس النهضة ــ لاسماعيل مظهر .

4 ــ صور الكواكب الثمانية والاربعين ــ لأبي الحسين عبد الرحمن بن عمر الرازى المعروف بالصوفى .

5 ــ القانون المسعودى ــ لأبى الريحان محمد ابن احمد البيروني .

6 ــ بدائع السماء ــ تأليف جيرالد هوكنز ــ ترجمة عبد الرحيم بدر .

7 ــ كيف ترقب السماء ــ تأليف فرنكلين برانللى ــ ترجمة الدكتور محمد جمال الدين الفندى

8 ــ النفوس الميتة ــ تأليف نيقولاى جوجول ــ ترجمة انطون حمصى ويوسف بنا .

9 ــ Cassell's Latin Dictionary

10 ــ Webster's New World Dictionary

11 ــ Norton's Star Atlas